المَبحث الثاني

نقد دعاوى المعارضات الفكريَّة المُعاصرة لحديث نخسِ الشَّيطان للمَولود

المَطلب الأوَّل
سَوق حديث نخسِ الشَّيطان للمَولود

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**ما من مَوْلُودٍ يُولَدُ إلا نَخَسَهُ**[1] **الشَّيْطَانُ فَيَسْتَهِلُّ**[2] **صَارِخًا من نخسة الشَّيْطَانِ إلا ابن مَرْيَمَ وَأُمَّهُ**».

قال أبو هُريرة: «اقرؤوا إن شِئْتُمْ: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦]»، متَّفق عليه[3].

وفي رواية له: «**كُلُّ بَنِي آدَمَ يَمَسُّهُ الشَّيْطَانُ يوم وَلَدَتْهُ أُمُّهُ إِلَّا مَرْيَمَ وَابْنَهَا**»[4].

---

(١) **النَّخْس**: يكون بالشَّيء المحدَّد؛ كرؤوس الأصابع، انظر «كشف المشكل» لابن الجوزي (٣/ ٣٢٥).

(٢) **الاستهلال**: الصِّياح، انظر «فتح الباري» (٦/ ٤٧٠).

(٣) أخرجه البخاري في (ك: أحاديث الأنبياء، باب: قول الله تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ﴾، رقم: ٣٤٣١)، ومسلم في (ك: الفضائل، باب: فضائل عيسىٰ ﷺ، رقم: ٢٣٦٦).

(٤) أخرجه مسلم في (ك: الفضائل، باب: فضائل عيسىٰ ﷺ، رقم: ٢٣٦٦).

المَطلب الثاني
سَوق المعارضاتِ الفكريَّة المعاصرةِ على حديث نخسِ الشَّيطان للمَولود

مع جلاءِ الحديث في تقريرِ عداوةِ الشَّيطانِ للإنسان منذ لحظةِ خروجِه إلىٰ مُعتركِ الدُّنيا، وعدم منابذتِه للعقل إذْ كان خبرًا غَيبيًّا محضًا؛ إلاَّ أنَّه لَم ينْجُ من سِهامِ الاعتراضِ قديمًا وحديثًا؛ فكان القاضي عبد الجبَّار الهمَداني فرَطَ القومِ إلىٰ مَلْءِ عَيبتِه منه[1]، ثمَّ تبِعَه عليه فئامٌ مِن المُحْدَثين، كان إمامهم في عصرِنا (محمود أبو ريَّة)، حيث أنَّه قد شمَّ بأنْفِه النَّقديِّ أنفاسًا مِن أَثرِ المَسيحيَّة في الحديث! يقول:

«.. ومِن المَسيحيَّات في الحديث: ما رواه البخاريُّ [وذكر الحديث] .. وفِقه هذا الحديث الَّذي سمعه الصَّحابي الجليل مِن الرَّسول ﷺ: أنَّ الشَّيطان يطعن كلَّ ابنِ آدم، أو ينخسه؛ إلَّا عيسىٰ بن مريم وأمَّه، وبذلك لم يسلَم مِن طعنِ الشَّيطان أحدٌ غيرهما مِن بني آدم أجمعين، حتَّىٰ الرُّسل: نوح وإبراهيم، وموسىٰ، وغيرهم، وخاتمهم محمَّد صلوات الله عليه وعلىٰ جميع النَّبيِّين؛ فانظُر، واعجَب!»[2].

(١) نسبه إليه الرَّازي في «مفاتيح الغيب» (٨/ ٢٠٥).

(٢) «أضواء علىٰ السنة المحمدية» (ص/ ١٨٦).

وقد كان (محمَّد عبده) من فتح البابِ لأمثالِ هذا للوُلوغ في هذا الحديث خاصَّةً، حيث قال: «المُحَقَّق عندنا أنَّه ليس للشَّيطانِ سلطانٌ علىٰ عبادِ الله المُخلَصين، وخيرُهم الأنبياء والمُرسَلون، وأمَّا ما وَرَد في حديثِ مريم وعيسىٰ، مِن أنَّ الشَّيطان لم يمْسَسهما . . فهو مِن الأخبارِ الظَّنية، لأنَّه مِن رواية الآحاد، ولمَّا كان مَوضوعها عالم الغَيب، والإيمان بالغَيب مِن قسمِ العقائد؛ وهي لا يُؤخَذ فيها بالظَّن: كُنَّا غير مُكَلَّفين الإيمانَ بمَضمونِ تلك الأحاديث في عقائدِنا»[١].

وقد كان مِمَّا أورَده المخالفون مِن معارضاتٍ علىٰ هذا الحديث؛ قولهم:

المعارضة الأولىٰ: أنَّ حِفظَ عيسىٰ ﷺ وأمِّه مِن نَخسةِ الشَّيطان دون سائر الأنبياء، فيه نوعُ تفضيلٍ لهما عليهم، ومنهم نبيِّنا محمَّد ﷺ!

وهذا ما يُفهم جَليًّا مِن تعليقِ (أبو ريَّة) آنفًا علىٰ الحديثِ[٢].

المعارضة الثَّانية: أنَّ الحديثَ مُناقضٌ لِما ثَبَت في الطِّب مِن أنَّ سَبب صُراخِ كلِّ مَولود حين ولادتِه هو: دخولُ الَهواء لأوَّلِ مرَّةٍ لرِئَتِه.

المعارضة الثَّالثة: أنَّ زوجةَ عمران (أمَّ مريم) ليست الوحيدة في الدُّنيا الَّتي أعاذت وليدَها وذرِّيته مِن الشَّيطان الرَّجيم؛ بل كلُّ مسلمٍ تقيٍّ يفعل ذلك!

وفي تقرير الشُّبهتين الأخيرتين، يقول (إسماعيل الكرديُّ):

«لقد ثَبَت في الطبِّ أنَّ سببَ صراخِ كلِّ مولود حين وَلادته هو: دخول الهواء لأوَّل مرَّةٍ لرئتيه، بعد أن كان يَتلقَّىٰ الأوكسجين مِن دَم أمِّه عبر الحبل السُّري، ولو لم يبكِ لاختنق.

ثمَّ؛ هل زوجةُ ابنِ عمران (أمُّ مريم) هي الوَحيدة في الدُّنيا الَّتي أعاذت وليدها وذريَّته مِن الشَّيطانِ الرَّجيم؟! أليسَ كلُّ مسلمٍ تَقِيٍّ يقول حين الجماع:

---

(١) «تفسير المنار» (٣/ ٢٤٠).

(٢) وبه شنَّع صاحب كتاب «صحيح البخاري نهاية أسطورة» (ص/١٥٧) علىٰ البخاري كون النَّبي ﷺ لم ينجُ من هذه الطعنة الشيطانية.

(اللَّهم جنِّبنا الشَّيطان، وجنِّب الَّشيطان ما رَزقتنا)؟! فلماذا لا يُعيذُ الله مَوْلودَه -حسب الحديثِ- مِن نَخْسة الشَّيطان؟ وهل دعاءُ المسلمين جميعُهم غير مَقبول»[1].

(١) «نحو تفعيل قواعد نقد متن الحديث» (ص/٢٧٩).

المَطلب الثَّالث
دفعُ دَعوى المعارضاتِ الفكريَّة المعاصرةِ عن حديث نخسِ الشَّيطان للمَولودِ

فأمَّا ما أوردوه في المعارضةِ الأولىٰ، من دعوىٰ أنَّ حِفظَ عيسىٰ عليه السلام وأمِّه مِن نَخسةِ الشَّيطان دون سائر الأنبياء تفضيلٌ لهما علىٰ سائر الأنبياء؛ فيُقال في ردِّه:

إنَّ امتيازَ نبيِّ الله عيسىٰ وأمِّه عليهما السلام بهذه الخَصيصةِ لا يستلزم تفضيلهما علىٰ رسول الله ﷺ ولا باقي الأنبياء، **فإنَّ ذِكرَ فَضيلةٍ لا يستلزم الرُّجحان بالأفضليَّة**[1]، وذلك للقطعِ بأنَّ نبيَّنا ﷺ هو سَيِّد وَلد آدم، ويليه في الرُّتبةِ أبوه إبراهيم عليه السلام، والقطعُ بفضيلته ﷺ وتقَدُّمِه علىٰ جميع الأنبياء أمرٌ مَعلوم، وأمَّا مريم عليها السلام فمهما سَمَت في مَراتب الوِلاية، فلن تصِل إلىٰ مقام الأنبياء.

وقد أخبرنا نبيُّنا ﷺ «**أنَّه ما مِن أحَدٍ إلَّا وُكِل به قرينُه مِن الشَّياطين**»[2]، فلا يخرج من عمومِ مقالتِه هذه لا مريم ولا ابنُها عليهما السلام، وهما وإن عُصِما مِن نخْسِه، فإنَّهما لم يُعصَما «مِن مُلازمتِه لهما، ومُقارنتِه.

(١) انظر «قواعد الأحكام» للعز بن عبد السلام (١/ ٣٩).

(٢) أخرجه مسلم في (ك: صفة القيامة والجنة والنار، باب: تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس وأن مع كل إنسان قرينا، رقم: ٢٨١٤)، وهذا لفظ أحمد في «المسند» (رقم: ٢٣٢٣).

ولقد خَصَّ الله تعالىٰ نبيَّنا ﷺ بخاصِّيةٍ كَمُل بها إنعامُه عليه؛ بأنْ أعانَه علىٰ شيطانِه حتَّىٰ صحَّ إسلامُه، فلا يأمرُه إلَّا بخير، وهذه خاصَّة لم يُؤْتَها أحدٌ غيرُه، لا عيسىٰ، ولا أُمُّه»[(١)].

وأما دعوىٰ المُعترضِ في الثَّانية: في أنَّ الحديثَ مُناقضٌ لِما ثَبَت في الطِّب مِن أنَّ سَبب صُراخِ كلِّ مَولود حين ولادتِه هو دخولُ الهواء لأوَّلِ مرَّةٍ لرِئتِه.

فالجواب عليه:

علىٰ تقديرِ أنَّ ما ذَكَره الأطبَّاء بَلَغ إلىٰ حَدِّ الحقيقة العلميَّة المقطوع بها؛ فإنَّ قُصاراهُ: أن يكون كشْفًا عن السَّببِ القريبِ المَحسوسِ لاستهلالِ المَولودِ صارخًا، وهذا التَّفسير العِلميُّ لا يَقضي بامتناع أسبابٍ أخرىٰ عَزُبَ الخلْق عن دركِها، لقصورِ مَدارِكِهم عن الإحاطةِ بكلِّ حقيقةٍ[(٢)].

نقول هذا علىٰ تقديرِ صِحَّة ما وَصل إليه بعض الأطبَّاءِ في بحثٍ في هذا المَجالِ، وبلوغه مَبلغَ القطعيَّات؛ فلمَّا توَّجَه نظرُنا إلىٰ التَّحقُّقِ مِن هذا البلوغِ وصحَّته، وجدنا الأمرَ لا يَعدو أن يكون فرْضًا يَتطرَّق الوَهم إليه، لا حقيقةً علميَّةً عند الأطبَّاء، كما أوْهمَه المُعترِض!

لقد لاحظَ الأطبَّاء تَزامن بُكاءِ الطِّفلِ حين الولادةِ مع أخذِه لأنفاسِه الأولىٰ، فافترضَ بعضُهم أنَّ البكاءَ مَردُّه إلىٰ إحساسِ المَولود بألَم جرَّاء دخولِ الهواءِ إلىٰ رِئَتَيه، وخالفهم آخرون، فافترضوا إيعازَ صرخةِ الوَليد الأولىٰ إلىٰ «الغَضبِ المُضْمَرِ فيه علىٰ عَمليَّة طردِه مِن الرَّحِم»[(٣)].

هذا فيما ظَهَر لهم، وإلَّا فإنَّ البروفيسور (گورْدون بُورْن gordon bourne) -وهو من كِبار أطبَّاء الولادة في بريطانيا- يعترِف في كتابِه «الحَمل»[(٤)] بأنَّ السَّببَ الدَّقيق للبكاءِ وبدءِ عمليَّةِ التَّنفسِ: لا يزال مَجهولًا!

---

(١) «المفهم» لأبي العباس القرطبي (٦/ ١٧٨).

(٢) «دفع دعوىٰ المعارض العقلي» (ص/ ٧٣٨).

(٣) «الجنين، متابعة مُوثقة بالصُّور» لـ د. توما شماني (ص/ ٢٧).

(٤) «الحَمل» ترجمة د. زيد الكيلاني)ص/ ٤٨٢).

فلنترُك أقوالَ الأطبَّاءِ وخلافَهم في هذهِ الظَّاهرة المُلازِمة للإنسان، ولنتأمَّل دقيقَ كلامِ ابن القيِّم في جودةِ جمعِه بين السَّببِ الحِسِّي والغيبيِّ لهذا المَشهدِ العجيب للولادةِ، حيث قال:

«إن قيل: ما السَّببُ في بكاءِ الصَّبي حالةَ خروجِه إلىٰ هذه الدَّار؟

قيل: ههنا سَبَبان:

سَبَبٌ باطِن، أخبَرَ به الصَّادق المَصدوق، لا يعرفه الأطبَّاءُ، **وسَببٌ ظاهر**.

فأما السَّبَب الباطن: فإنَّ الله سبحانه اقتَضَت حكمتُه أنْ وَكَّل بكلِّ واحد مِن وَلد آدمَ شيطانًا، فشيطان المَولود قد خَنس، ينتظر خروجَه، ليُقارِنَه ويَتوكَّل به، فإذا انفصَلَ، استقبلَه الشَّيطانُ وطعَنه في خاصِرَته، تحرُّقًا عليه وتَغيُّظًا، واستقبالًا له بالعَداوة الَّتي كانت بين الأبَوَين قديمًا، فيبكي المَولود مِن تلك الطَّعنة، ولو آمن زنادقةُ الأطبَّاء والطَّبائعيِّين بالله ورسولِه، لم يجدوا عندهم ما يُبطِل ذلك ولا يَرُدُّه..

والسَّبَب الظَّاهر: الَّذي لا تُخبِر الرُّسُل بأمثالِه، لرُخْصِه عند النَّاس، ومعرفتهم له مِن غيرِهم: هو مفارقتُه المَألوفَ والعادةَ الَّتي كان فيها إلىٰ أمرٍ غريب، فإنَّه يَنتقل مِن جسمٍ حارٍّ إلىٰ هواءٍ باردٍ ومكانٍ لم يألفه، فيستوحِشُ مِن مُفارقتِه وَطَنَه ومَألفَه»[1].

وأمَّا الجواب عن الاعتراض الثَّالث، في دعوىٰ المُعترِض أنَّ امرأةَ عمران ليست وحدها من أعاذت وليدَها وذرِّيتَها مِن الشَّيطان، فيُقال:

إنَّ سبَبَ انقداحِ هذا الاعتراض عند المُعترضِ أمران:

الأول: ظنُّه أنَّ مُقتضىٰ نفوذِ أثَرِ الدُّعاء -عند توَفُّر شروطِه وانتفاءِ موانعِه- بتجنيبِ المَولود الشَّيطان: هو ألَّا يحصُلَ النَّخسُ والطَّعن له!

الأمر الثَّاني: ظنُّه أنَّ الطَّعن هو الضَّرَر الَّذي يُجنَّبه المَولود في الدُّعاء النَّبوي عند الجِماع.

---

(١) «التبيان» لابن القيم (ص/٣٦٠).

فأمَّا الأمر الأول: فهو ناتج عن غَلَطِه في فهمِ الحديث، في أحسنِ أحوالِ الظَّنِ به؛ ذلك أنَّه لا يلزم مِن نُفوذِ أثرِ الدُّعاءِ ألَّا يحصل ما أخبر به النَّبي ﷺ مِن الطَّعن؛ لأنَّ المُراد مِن دُعاء الجِماع في الخبر النَّبوي: أن تَتَحقَّق الحَيْلولة بين الإضلالِ والإغواءِ -الَّذي سببُهما الشَّيطان- وبين المَولود، وليس المُراد مِن الدُّعاء الحيلولة بينه والطَّعن بخصوصِه.

والمُقتضي لهذا المُراد مِن هذا الحديث: ما ثَبَت في حديثِ البابِ: مِن وقوعِ النَّخس لكلِّ مَولودٍ سِوىٰ ما استثناه الخَبر، فهذا التَّقدير لازمٌ لاستقامةِ الحديث، وجريانِه علىٰ السَّداد، دون تضارُبٍ بين الخَبرين؛ فتقديرُ الإضلال إذن أصْدَقُ مِن تقديرِ الطَّعن؛ لدلالةِ النَّصِ عليه.

ثمَّ إن الطَّعن ليس بِضَررٍ يقتضي تخصيصَه بدعاء؛ إذ لو كان كذلك ضَارًّا، لسَلِم منه الأنبياء والأولياء؛ إذْ همْ أوْلىٰ بهذا المَعنىٰ[1].

يقول أبو العبَّاس القرطبي في بيانٍ مُتقَنٍ لمعنىٰ قولِ النَّبي ﷺ في الحديث «لو أنَّ أحدَهم يقول حينَ يَأتي أهلَه: باسمِ الله، اللَّهم جنِّبني الشَّيطان، وجنِّب الشَّيطان ما رزقتنا، ثمَّ قُدِّر بينهما في ذلك، أو قُضيَ ولدٌ: لم يضُرَّه شيطانٌ أبَدًا»:

قيل معناه: لم يضرَّه: لم يصْرَعْه الشَّيطان.

وقيل: لا يَطعن فيه الشَّيطان عند ولادتِه، ويطعن في خاصرةِ مَن لا يُقال له ذلك.

قال القاضي[2]: لم يحْمِلْه أحَدٌ علىٰ العمومِ في جميعِ الضَّرر، والإغواء، والوسوسة.

قلت -القائل: القرطبيُّ-: أمَّا قصرُه علىٰ الصَّرع وحده فليس بشيء؛ لأنَّه تحكُّمٌ بغير دليل، مع صلاحيَّة اللَّفظ له ولغيره.

---

(١) مُستفاد من «دفع دعوىٰ المعارض العقلي» (ص/ ٧٣٩).

(٢) يعني القاضي عياض السَّبتي في «إكمال المعلم» (٤/ ٦١٠).

وأمَّا القول الثَّاني: **ففاسدٌ**؛ بدليل قوله ﷺ: «**كلُّ مَولود يَطعن الشَّيطان في خاصرتِه إلَّا ابن مريم** . . .»، هذا يدلُّ علىٰ أنَّ النَّاجي مِن هذا الطَّعن إنَّما هو عيسىٰ وحده عليه السلام؛ وذلك مَخصوصُ دعوةِ أمِّ مريم؛ حيث قالت: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦].

ثـمَّ إنَّ طعنَه ليس بضَررٍ، ألَا تَرىٰ أنَّه قد طَعن في كثير مِن الأولياء والأنبياء، ولم يضرَّهم بذلك؟!

ومقصود هذا الحديث -والله تعالىٰ أعلم-:

أنَّ الوَلَد الَّذي يُقال له ذلك يُحفَظ مِن إضلالِ الشَّيطان وإغوائه، ولا يكون للشَّيطان عليه سلطان؛ لأنَّه يكون مِن جملةِ العبادِ المَحفوظين المَذكورين في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، وذلك ببَركةِ نيَّة الأبَوَيْن الصَّالحين، وبركةِ اسم الله تعالىٰ، والتعوُّذ به، والالتجاء إليه، وكأنَّ هذا شَوبٌ مِن قولِ أمِّ مريم: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦].

ولا يُفهَم مِن هذا نَفْيُ وَسوستِه، وتشعيثِه، وصرعِه! فقد يكون كلُّ ذلك، ويحفظ الله تعالىٰ ذلك الوَلَد مِن ضَررِه في قلبِه، ودينِه، وعاقبةِ أمرِه، والله تعالىٰ أعلم»(١).

أعاذنا الله مِن إغواءِ الشَّياطين إنسِهم وجنِّهم.

---

(١) «المفهم» (٤/١٥٩-١٦٠).